

التضمين النحوي عند الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير

Taher Ben Ashour's Grammatical Inclusion in His Interpretation of Liberation and Enlightenment

سهيلة حساني، جامعة عمار ثليجي الأغواط، مخبر اللسانيات التقابلية وخصائص اللغات، so.hassani@lagh-univ.dz

عبد القادر بن التواتي، جامعة عمار ثليجي الأغواط، 1967amel@live.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/ 13م تاريخ القبول: 2021/11/ 27 تاريخ النشر: 2021/12/ 31

ملخص:

يعتبر التضمين النحوي من الظواهر اللغوية الهامة التي وردت في القرآن الكريم إذ اعتمده علماء التفسير خصوصا في حل وتفسير كثير من القضايا اللغوية والبيانية والعلاقات النحوية، فيوجهون الاعراب والدلالة وكثيرا من العناصر الجمالية وفق مفهومه، كما أن له دور في تطور اللغة واتساعها. واخترنا تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور باعتباره من أغنى كتب التفسير من حيث المادة اللغوية والمناقشات النحوية، ويحاول البحث الكشف عن مفهوم التضمين النحوي عند ابن عاشور، ودوره التضمين في الكشف عن المعنى وتبيين الدلالة والوصول إلى مقصدية الخطاب القرآني.

الكلمات المفتاحية: التضمين النحوي – اشراب – المعنى – التحرير والتنوير

Abstract:

Grammatical inclusion is an important linguistic phenomenon contained in the Qur'an, as it has been adopted by the scholars of interpretation, especially in the solution and interpretation of many linguistic and graphic issues and grammatical relationships, guiding expression, significance and many aesthetic elements according to its concept, and has a role in the development and expansion of the language.

We chose to interpret the liberation and enlightenment of Sheikh Mohammed Al-Taher bin Ashour as one of the richest books of interpretation in terms of linguistic material and grammatical discussions, and the research tries to reveal the concept of grammatical inclusion of Ibn Ashour, and its role of inclusion in revealing meaning, showing significance and reaching the meaning of Qur'anic discourse.

Keywords: Grammatical Inclusion - Implication - Meaning - Liberation and Enlightenment.

1. مقدمة:

تعد معرفة النحو واجبة على دارسي القرآن وعلومه، لدوره الهام في الوصول إلى مقصدية كلام الله عز وجل، فالنحو يمكن الوصول إلى معنى الآيات وتوجيهها وتفسيرها، لذلك جعل أهل العلم معرفة المفسر والفقهاء والأصوليين للنحو واجبة وضرورية، إذ يقول الزمخشري « والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم ذلك أنهم لا يجيدون علما من العلوم الإسلامية: فقهها وكلامها، ومكشوف لا يقنع، ويرون أن الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائله مبني على علم الإعراب» (ص03، 2004).

ويقصد هنا علم النحو ويقول ابن حزم « لا بد للفقهاء أن يكون نحويا لغويا، وإلا فهو ناقص لا يحل له أن يفتي» (حزم، 1983) وعلم النحو وسيلة أساسية في تحليل التراكيب وفهم المعاني والتأويل والوصول إلى المقاصد من آيات القرآن الكريم. ومن المعروف أن علم التفسير واضح محدد يقوم على أسس معلومة متفق عليها، ومن هذه الأسس مجموعة من العلوم اللغوية ومنها النحو، فقد تضمنت كتب التفسير وعلوم القرآن مباحث بلاغية ونحوية كثيرة ومثال ذلك تفسير الكشاف لزمخشري الذي عرض فيه من المسائل اللغوية النحوية الشيء الكثير، وأبو حيان وغيرهم من الذين جعلوا من التحليلات النحوية منهجا للتوصل إلى فهم معاني القرآن والكشف عن مقاصده، ومن المفسرين المتأخرين الذين ساروا على هذا المنهج الشيخ الطاهر بن عاشور، إذ يرهن به على اختياراته المذهبية والعقدية، ويعدّ تفسيره "التحرير والتنوير" من أغنى كتب التفسير من حيث المادة اللغوية والمناقشات النحوية، ومن أبرز القضايا النحوية التي عالجها ابن عاشور في تفسيره كانت قضية التضمن النحوي في آيات القرآن الكريم، ولقد اتسمت معالجته لهذه القضية بالغرارة والتنوع والتوسع في التحليل وعرض الآراء، وقبل أن نتحدث عن التضمن النحوي عند ابن عاشور سنحاول الوقوف على سيرته، وتبيين معنى التضمن النحوي لغة واصطلاحاً، ثم التطرق إلى بعض الشواهد من تفسير التحرير والتنوير.

2. الشيخ الطاهر بن عاشور وتفسيره التحرير والتنوير

1.2 ترجمة ابن عاشور:

هو الشيخ محمد الطاهر الثاني بن الشيخ محمد الطاهر الأول بن محمد الشاذلي بن عبد القادر محمد بن عاشور الشريف الأندلسي (العلي، 1994) يرجع نسبه إلى عائلة آل عاشور وهم من الأسر الأندلسية التي اشتهرت بمكانتها العلمية واعتلاء بعض أفرادها للمناصب الحكومية (العلي، 1996)، ولد محمد الطاهر ابن عاشور بالمرسى، ضاحية من ضواحي العاصمة التونسية بقصر جدّه للأمّ الوزير محمد العزيز بوعتور في شهر جمادى الأولى سنة 1296هـ الموافق لشهر سبتمبر 1879 (ص37).

نشأ ابن عاشور في بيئة علمية حيث التحق بجامعة الزيتونة وعمره أربعة عشر عاماً في سنة 1893م وانتهت دراسته بها بإحرازه شهادة التطويق سنة 1899م، تولى العديد من المناصب منها التدريس والإشراف على جامعة الزيتونة، كما شارك في العمل الإداري إذ عين نائباً للدولة في الهيئة المشرفة على التعليم الزيتوني والمعروفة باسم "النظارة العلمية"، وعين الشيخ ابن عاشور في منصب مدير للجامع الأعظم سنة 1932م ثم تولى القضاء والإفتاء ومشيخة الإسلام (ص40).

قال عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي « علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ من ذخائره، فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، مسائل في الاستدلال واسع الثراء في كنوزها نافذ البصيرة في معقولها...» (خوجة، 2004).

توفي الشيخ ابن عاشور يوم الأحد 13 رجب 1393هـ الموافق لـ 12 أوت 1973 بعد حياة حافلة بالاجتهاد والتأليف.

2.2 مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة في ميادين مختلفة، في الشريعة الإسلامية وفي الدراسات اللغوية والأدبية بالإضافة إلى الشرح والتحليل والتحقيق والتعليق، منها المطبوع ومنها المخطوط، وأهم هذه المؤلفات وأضحها شكلا ومضمونا "تفسير التحرير والتنوير" الذي يقع في خمسة عشر مجلد، وكتاب "مقاصد الشريعة"، "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، "التوضيح والتصحيح في أصول الفقه"، "موجز البلاغة"، كشف المغطى في أحاديث الموطأ"، "أصول التقدم في الإسلام"، ومن مؤلفاته أيضا "الوقف وآثاره في الإسلام".

3.2 تفسيره التحرير والتنوير:

سمى ابن عاشور تفسيره بـ "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" (عاشور، 1984) ثم اختصر هذا العنوان إلى التحرير والتنوير من التفسير ويتميز بأنه جاء جامعا لما سبقه من تفاسير، فأتى شاملا لما عرضه السابقون من آراء ناظر فيها ممحضا ومرجحا.

ومن أهم مصادر هذا التفسير: تفسير الكشاف للزمخشري، المحور الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب للرازي، وتفسير البيضاوي، وتفسير الشهاب الألوسي، وما كتبه القزويني والقطب والطبي عن الكشاف، وما كتبه الخفاجي على البيضاوي، وتفسير أبي السعود وتفسير القرطبي، وتفسير الطبري وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي (خوجة ا.) واعتمد في تفسيره على علوم اللغة وجعلها الآلة والوسيلة للوصول إلى معاني القرآن، وقد كثر استشهاد بآراء النحاة وتخريجاتهم النحوية سواء في توجيههم للقراءات القرآنية أو استنباطهم للقواعد الأصولية أو الاحتجاج لمذاهبهم الفقهية والعقدية، كما اعتمد كثيرا في استشهاده على ما ورد عن الزمخشري وخاصة في مسائل إعراب القرآن والكشف عن الأوجه البلاغية للآيات القرآنية وتبين الجمالية اللغوية فيها، كما نراه ينتصر لآرائه بالتحليل اللغوي، والدراسة الأسلوبية للسور.

ويشير الطاهر بن نعمان حسن إلى أن « الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كان من أعمق علماء عصره تناولا لعلوم الدلالة اللغوية في تفسير القرآن الكريم، فاعتنى في تفسيره باللغة عناية ظاهرة، واهتم بالمفردة القرآنية من جميع زواياها الدلالية، وركز على الأساليب البيانية وعطائها الدلالي بما يتعلق كله في خدمة تفسير القرآن الكريم... » (حسن، 2014).

ويرى محمد النذير أوسالم أن ابن عاشور قد تفنن في استعمال علوم اللغة في تفسيره إذ يقول « تشكل اللغة بشتى فروعها أهم مكزات ابن عاشور في تفسيره، فهو يستعمل آلاها بدقة فائقة، مما ينم عن تمكنه منها» ويضيف « ليلتمس بعدها بدوقه مواطن البيان والاعجاز في الآية المراد تفسيرها» (أوسالم، 2009).

ولقد أشار ابن عاشور لهذا في المقدمة الثانية من تفسيره عند حديثه عن استمداد علم التفسير وحاجته إلى علوم اللسان العربي فيقول « إن القرآن كلام عربي، فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان» (عاشور ا.) ولقد كان لهذه العلوم الأثر الكبير في تبين معنى الآيات وتوجيهها.

وغالبا ما يذكر القراءات الواردة في الآية محل التفسير وينتهي إلى ترجيح إحداها، وكان يرد على الزمخشري وابن عطية والطبري وغيرهم ويعتمد في ذلك على « الإعراب ويعدده دليلا إلى المعن، ويحتكم إليه حينما يرى آراء المفسرين تشط حول المعنى الذي تتضمنه الآية التي يفسرها» (بري، 2002).

3. التضمين في الدرس النحوي:

بحث علماء اللغة والنحو ومفسرو القرآن التضمين النحوي، وفصلوا تعريفه ومفهومه وأقسامه، وعلاقته باللزم والتعدي، وبالأصل والفروع، والملفت في الأمر أن العناية بالتضمين النحوي دراسة وتحليلا كانت أكثرها في سياق الدراسات القرآنية، وما يتصل بالنص القرآني من تفسير وشرح، وتوضيح، ولأسلوب التضمين حضوره وأهميته وعلى أساسه يفسر علماء النحو والبلاغة جانبا مهما من العلاقات النحوية البلاغية والاعجازية.

لقد جاء في لسان العرب لابن منظور قوله « ضمن، الضمين: الكفيل، ضمن الشيء وبه، ضمنا: كفل به، وضمنه إياه: كفله... وضمت الشيء، تضمينا، فتضمنه عني مثل غرمته» (ص51، 1999) وقال الخليل بن أحمد « التضمين والضمان واحد، كل شيء أحرز فيه شيء ضمنه» (احمد).

وقال الجوهري: «ضمنت الشيء ضمنا كفلت به، فأنا ضامن وضمين، وضمنته الشيء تضمينا، فتضمنه عني، مثل غرمته وكل شيء جعلته في وعاء، فقد ضمنته إياه» (الجوهري، 1990).

نستنتج مما سبق أن مادة ضمن تعني إدخال شيء في آخر، واشتماله عليه، وكفالاته وتغريمه بتضمينه واحتوائه.

أما التضمين اصطلاحا: «هو اشراب لفظ معنى لفظ آخر، وإعطاؤه حكمه، فإذا كان اللفظ فعلا تصرف في اللزوم والتعدي تصرف الفعل الذي أشرب معناه فقد يكون الفعل لازما، فيتعدى بالتضمين، أو يكون متعديا فيلزم، أو يستمر لازما، فيعدل به عن حرفه إلى حرف آخر» (الزعبلاوي، 1984).

وأورد ابن هشام مفهوما ينص على أن التضمين اشراب لفظ معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين (هشام، 1964)، ويرى الجرجاني أن التضمين هو أن يقصد بلفظ فعل معناه الحقيقي، ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه ويدل عليه بذكر شيء من متعلقاته، ثم بين فائدته بقوله إن فائدة التضمين إعطاء مجموع المعنيين، فالفعالان مقصودان معا، قصدا وتبعاً (السامرائي، 2006).

يفهم مما سبق أن التضمين هو التوسع في المعنى، وإعطاء مجموع معنيين وبذلك يعبر عن معنيين بإيجاز واختصار يغني عن الإطالة والتكرار في غير ما يقتضيه الحال، وهو أسلوب بياني بالدرجة الأولى، يتيح توليد معان إضافية يقتضيها السياق ولا يدل عليها الأصل، فينزع معنى لفظ إلى لفظ آخر فيعضده ويؤدي معناه في موقف يكون الكلام في حاجة إليه، وهذه الظاهرة كثيرة في القرآن الكريم، وقد تكون لتخريج المعاني وتفسير الآيات.

1.3 فوائد التضمين النحوي:

يتضح جليا أن التضمين النحوي من الموضوعات التي يتوقف عليها فهم القرآن الكريم، ذلك أن مقاصد الكلام مبنية على معاني الحروف، وهذا مبحث مهم يتوقف عليه إبراز المقاصد والأغراض النحوية والدلالية في الجمل والتراكيب وهنا تكمن أسرار النظم.

ويمكن حصر فوائد التضمين في ثلاث:

الأولى: الإيجاز لأن التضمين يعبر بلفظ واحد عن مجموع معنيين، والإيجاز عند العلماء هو حذف زيادات الألفاظ، وهو فضيلة من فضائل الكلام ونوع شريف من أنواعه (الأثير، 1995).

الثانية: التوسع في استعمال اللفظ فيؤدي مؤدى غيره، أي إن اللفظ يوظف في التعبير عن معنى لم يكن يدل عليه في أصل الوضع، «فتتسع دلالة الألفاظ التي يدخلها التضمين وهذا يؤدي إلى اتساع اللغة، وزيادة قدرتها على استيعاب المعاني والتعبير عنها» (باشا).
الثالثة: المبالغة والتوكيد: انفرد الزمخشري في التنبيه عليها فقال في تفسير قوله تعالى: { يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } (يوسف) والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك، فإن قلت هلا قيل فيكيدوك. كما قيل فيكيدوني؟ قلت ضمن معنى فعل يتعدى باللام، ليفيد معنى الكيد، مع إفادة معنى الفعل المتضمن، فيكون أشد وأبلغ في التخويف (الزمخشري، 1986).

2.3 التضمين النحوي عند الطاهر بن عاشور:

إن المتتبع لشواهد التضمين النحوي في تفسير "التحرير والتنوير" لابن عاشور يدرك حقيقة اعتداده بالتضمين النحوي وتخرجه بعضا من استعمالات اللغة في شواهد القرآن على هذا التوجيه ولقد زخر تفسيره بشواهد التضمين، واعتمد في توجيهها على آراء العلماء السابقين، وتفرد ببعض التوجيهات، ويتضح منهجه في الكشف عن مدلول الآيات من خلال توظيفه لعلم النحو، فبيحث أحيانا في جميع الأوجه الإعرابية المحتملة في إعراب المفردة أو الجملة، ويعرض آراء النحاة وأقوالهم في المسألة، ثم يرجح رأيا أو يختار قولاً ويستبعد آخر، وأحيانا يستدرك على من قبله من المفسرين والنحويين .

ولم يخرج مفهوم التضمين النحوي عند ابن عاشور عما أجمع عليه علماء اللغة والنحو (الكفوي، 1998)، غير أن ابن عاشور أضاف مصطلح الوصف كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وغيرها ليفرق بينها وبين الفعل في الشكل لا في العمل، فكلاهما يقع فيه التضمين النحوي وتتحقق فيه شروطه، ويتضح هذا من تعريفه للتضمين فيقول: « والتضمين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر، ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان» (عاشور ا،. التحرير والتنوير).

ومفهوم التضمين النحوي عن ابن عاشور كان أكثر شمولاً، إذ لم يقتصر في تعريفه على التضمين في الأفعال وما يشبهها بل تعداه إلى التضمين في الأسماء ومنها الأسماء المبنية، إذ يرى كغيره من النحاة أنها مبنية لتضمنها معاني أخرى، ومن ذلك قوله إن "إذا" ظرف الزمان إنما بني لتضمنه معنى الشرط، ورأى أن دليل ذلك اقتران جملة الشرط معها بالفاء، ويقول في تفسيره قوله تعالى: { فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } (محمد) «وإذا ظرف للزمان المستقبل وهو الغالب فيها فيكون ما بعدها مقدرًا وجوده، أي: "إذا جد امر القتال وحدث" وجملة "فلوا صدقوا الله" دليل جواب "إذا" لأن "إذا" ضمنت هنا معنى الشرط، أي كذبوا الله وأخلفوا فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم، واقتران جملة الجواب بالفاء للدلالة على تضمين "إذا" معنى الشرط، وذلك أحسن من تجريده عن الفاء إذا كانت جملة الجواب شرطية أيضا» (عاشور ا،. التحرير والتنوير).

تأثر ابن عاشور بمن سبقه من العلماء فيما يتعلق بمفهوم التضمين النحوي، فهو يرى أنه ضرب من التوسع اللغوي الذي تتيحه العربية لما تتمتع من خصائص ومميزات، ويرى أن الأصل في الفعل "استبق" في قوله تعالى: { واستبقا الباب } (البقرة)، أن يتعدى بحرف الجر اللام، غير أنه تعدى إلى المفعول بنفسه لتضمنه معنى الفعل "اغتموا" من قبيل التوسع الذي تتيحه اللغة، يقول ابن عاشور في هذه الآية:

« والاستباق افتعال والمراد به السبق، وحقه التعدية باللام، إلا أنه توسع فيه فعدي بنفسه كقوله تعالى: {واستبقا الباب} (يوسف ا). أو على تضمين استبقوا معنى اغتتموا» (عاشور ا، التحرير والتنوير)، وهذا الرأي في مفهوم التوسع اللغوي الواقع في التضمين هو عينه ما قال به ابن جني: «اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر» (جني، 1952) غير أن ابن عاشور تفرد هنا حين فرق بين الاتساع في اللغة، وبين التضمين الذي هو أثر ذلك الاتساع، وهذا ما قصده ابن عاشور في قوله السابق، فخص التعدية بالتوسع وخص اشراب المعنى بالتضمين.

كما أثرت مجازية الدلالة في توجيهات ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، فأكثر من القول بمجازية الأدوات أو ما يسمى الدلالة المجازية للأداة مثل الاستعلاء المجازي في توجيهه لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَسِيبَلْ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَدْنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (التوبة) قال ابن عاشور: «شبه السلطان والمؤاخذة بالطريق، لأن السلطة يتوصل بها من هي له، إلى تنفيذ المؤاخذة في الغير، ولذلك عدي بحرف "على" المفيد لمعنى الاستعلاء، وهو استعلاء مجازي بمعنى التمكن من التصرف في مدخول "على" فكان هذا الترتيب استعارة مكنية رمز إليها بما هو م ملائمت المشبه به، وهو حرف "على" وفيه استعارة تبعية» (ص5).

أما التقدير في شواهد التضمين النحوي هو تقدير معنى لا تقدير اعراب، غير أن ابن عاشور كان يوجهه على التضمين وعلى تقدير الحال في بعض المواضع كقوله في توجيهه لقوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} (النساء) «لا تأكلوها بأن تضموها إلى أموالكم» (عاشور ا، التحرير والتنوير) أي ضامنها إلى أموالكم أو مع أموالكم.

يتضح هنا أن القول بالتضمين لا يوافق القول بتناوب الحروف، أو الزيادة أو نوع الخافض، وذكر ابن عاشور في بعض الشواهد العلاقة بين اللفظين أو الفعلين وأشار ان كلاً منهما مقصود في المعنى كقوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَحُمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ} (البقرة ا). يرى هنا ابن عاشور أن الفعل "أهل" تضمن معنى الفعل "تقرب" وكلا المعنيين مطلوب في السياق لإيصال القصد في الآية، ووجد في هذا الموضوع فائدة بلاغية دلالية تزيد في تقوية المعنى وتوكيده وتتجاوز حدود بلاغة الإيجاز، ويقول في تفسير هذه الآية:

« ف "أهل" في الآية مبني للمجهول، أي ما أهل عليه المهمل غير اسم الله، وضمن "أهل" معنى "تقرب"، فعدي متعلقة بالباء وباللام، مثل: "تقرب"، فالضمير الجرور بالباء عائد إلى ما "أهل"» (عاشور ا، التحرير والتنوير).

نلاحظ أن أهم ما اعتمده ابن عاشور في توجيهه لشواهد التضمين توفير الانتقال من الاستعمال المعجمي إلى استعمال آخر يتحقق مع وجود قرينة تدل على المعنى المطلوب أو تقديره.

كما حاول ابن عاشور إظهار قيمة التراكيب في تفسير القرآن الكريم ليكشف عن المعنى والدلالة الكامنة وراءه، ويقف على المقصدية من اخطاب القرآني وتحليله النحوي كان له الأثر البالغ في تبين الدلالة.

لم ينقل ابن عاشور أقوال مصادره كما هي، كالكشاف للزمخشري والحرر الوجيز لابن عطية، بل نقل خلاصة ما وصلوا له وقد عبر عن خبرة بعض المفسرين بقوله: «وقد اضطرب كثير في تفسيرها» (عاشور ا، التحرير والتنوير) ويقصد هنا قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} (الصفوات) كما أضاف «قال ابن عطية ما خلاصته: اضطرب المتأولون في معنى قولهم "عن اليمين" فعبّر عنه ابت

زيد وغيره بطريقة الجنة ونحو هذا من العبارات التي هي تفسير للمعنى، ولا تختص بنفس اللفظة وبعضهم نجا في تفسيره إلى ما يخص اللفظ فتحصل من ذلك معان» (عاشور ا.، التحرير والتنوير) وهنا يبرز دور التحول الدلالي لمضمون الفعل أو الاسم أو الحرف وتمديد عطائه المعنوي على النحو الذي أشار إليه ابن عاشور.

والتضمين في الأسماء يعد أكثر شمولاً، إذ لا يقتصر على الأسماء المعربة وما أشبهها، بل تعدى ذلك إلى التضمين في الأسماء المبنية، لأنها تضمنت معاني أخرى.

كما يعتمد التضمين النحوي كذلك على قضية اللزوم والتعدي استناداً إلى الأصل والفرع في الاستعمال اللغوي ولا غرابة أن يقال « إن الفعل اللازم كذا قد تضمن معنى المتعدي، لأن الأصل فيه هو اللزوم، وأن الفعل المتعدي كذا قد تضمن معنى اللازم، لأن الأصل أن يتعدى بحرف لا يتعدى به الآخر» (ص18، 1990) والتضمين كذلك « أن يؤدي فعل أو ما في معناه مؤدى فعل آخر فيعطيه حكمه في التعدية واللزوم» (الخالدي، 2000).

ويقول ابن عاشور عن التضمين في الأفعال « أن تضمن الفعل أو الوصف معنى فعل آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته بحرف أو معمول، فيحصل في الجملة معيان» (عاشور ا.، التحرير والتنوير) ، ولا بد من وجود قرينة في السياق تجمع بين المعنيين وتؤكد وقوع التضمين في الكلام، قالوا قرينة لأنه يشترط أن يستدل على المعنى الملحوظ بحرف وصلة، فقد يضمن الفعل اللازم معنى فعل متعد، أو يضمن الفعل المتعدي إلى مفعوله الثاني بالحرف معنى فعل متعد إلى مفعولين، وهنا لا تكون صلة تجمع بين الفعل المذكور والفعل المتضمن، وإنما يشترط أن تقوم صمة قرينة للتضمين وهذا ما ذهب إليه ابن كمال باشا من أن ذكر الصلة التي هي قرينة غير لازم للتضمين لأن الفعل اللازم قد يتضمن معنى المتعدي فتكون التعدية حينئذ هي القرينة الموجبة للتضمين (باشا، رسائل لغوية) ، وقد كثر عنه هذا اللون من التضمين وتفنن في إجرائه بمواضع عدة من تفسيره على طريقتيه في استحبابه المجاز.

وتبنى ابن عاشور القراءة التفاعلية التي تتجدد وتتجاوز نفسها في كل لحظة، وهي التي تطمح إلى الكشف على الدوام عن الجديد الممكن في النص القرآني، فيقول « أما الذين جهدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مأثور رمو هذه الكلمة على كواهنها ولم يضبطوا مرادهم لمأثور، فإن أرادوا به ما هو مأثور، فإن أرادوا به ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير بعض الآيات، إن كان مروياً بسند مقبول من صحيح أو حسن، فإن التزموا هذا الظن لهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وينايع ما يستنبط من علومه» (باشا، رسائل لغوية).

ويرى في بعض المواضع أنه لا حاجة إلى القول بالتضمين في هذه الشواهد، لأنها أصبحت مفهومة الدلالة نتيجة التطور اللغوي فصارت كالأصل وقد ورد رأيه هذا أثناء توجيهه لتعدي الفعل "يؤلي" بحرف الجر "من" مع أن أصل الاستعمال أن يتعدى الفعل بحرف الجر "على" في قوله تعالى: {للذين يؤلون من نسائهم} (البقرة ا.) فيقول « -أي على أن يؤتوا- فعدها بمن، ولا حاجة إلى دعوى الحذف والتضمين، وأياً من كان فالإبلاء، بعد نزول هذه الآية، صار حقيقة شرعية في هذا الحلف على الوصف المخصوص» (عاشور ا.، التحرير والتنوير).

4. خاتمة:

حاولنا في هذه الورقة البحثية أن نكشف عن مفهوم التضمن النحوي عند ابن عاشور ورؤيته له، كما تطرقنا إلى البعض من شواهد التضمن في تفسيره التحرير والتنوير، هذا الأخير الذي يعدّ من التفاسير المهمة للقرآن الكريم، لما يشتمل عليه من مواضيع وتوجيهات تتخطى التفسير القرآني إلى معالجة قضايا لغوية نحوية، واعتمد ابن عاشور في تفسيره هذا على مجموعة من العناصر اللغوية وغير اللغوية، وناقش مضامين الآيات وأولها بمنهجية وطريقة خاصة، وكثيرا ما يلتفت إلى البلاغة العربية وما تسخر به من الصور البيانية ليستفيد منها في إبانة معاني القرآن الكريم ويؤكد بها وجهة نظره، واستعان بقواعد النحو وأصوله في بسط أفكاره وترجيحها. وكان التضمن النحوي أحد العناصر التي عاجلها ابن عاشور باعتباره أحد وسائل قارئ القرآن الكريم إلى بلاغة النص القرآني، وارتبط المعنى هنا بالتحليل النحوي الذي كان ناتج التدبر والتفكير، ويتضح مما سبق أن التضمن باب واسع من أبواب التعليل النحوي الذي لجأ إليه ابن عاشور في كثير من التوجيهات، وفضله على القول بتناوب الحروف، والتضمن عنده لا يقتصر على الفعال فقط بل يتعداها إلى الأسماء والحروف.

كما أن التضمن أسلوب رفيع وضرب من ضروب الإيجاز الذي يعدّ من أهم خصائص هذه اللغة الشريفة، وهو وسيلة من الوسائل المحفزة للوصول إلى أفق فكري ولغوي جديدين إذ يساهم في توسع المعنى وتغيير دلالة المفردات وتراكيبها، وهذا من قبيل التطور الدلالي اللغوي في ضوء المعاني النحوية المستقاة من التضمن.

ويمكن أن نعدّ من نتائج الورقة البحثية ما يلي:

- تفسير التحرير والتنوير من التفاسير المهمة للقرآن الكريم، لما يشتمل عليه من مواضيع ومعالجات تتخطى التفسير القرآني إلى القضايا اللغوية.

- وجوب إتقان علوم اللغة كالنحو من أجل التعامل مع الكتاب العزيز، ولإدراك تأويله ومقاصده.

- للتضمن دور بارز في تقدير المعنى وتأويله ويعدّ آلية من آلياته.

- يعدّ التضمن من المظاهر التي تظهر فيها قدرة الألفاظ في العربية على اختزال المعاني، وأول من استقر عنده مفهوم التضمن هو الرّمخشي وعده من الأساليب البلاغية.

- ولقد تناوله العديد من المفسرين ووجهوا له الكثير من الآيات كالطبري وابن كثير.

- تضمن تفسير التحرير والتنوير قضايا لغوية هامة تستحق الدراسة والبحث إلى جانب موضوع التضمن.

5. الهوامش:

1- ابن الأثير. (1995). المثل السائر. (محمد محي الدين عبد الحميد، المترجمون) بيروت صيدا: المكتبة العصرية.

2- ابن خوجة. محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، مرجع سابق.

3- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 01).

4- ابن عاشور. التحرير والتنوير.

5- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 2).

- 6- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 4).
- 7- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 2).
- 8- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 3).
- 9- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 23).
- 10- ابن عاشور. التحرير والتنوير (المجلد 2).
- 11- ابن كمال باشا. رسائل لغوية.
- 12- ابن منظور. (1999). لسان العرب (الإصدار 3، المجلد 7). بيروت لبنان: دار الصادر.
- 13- ابن هشام. (1964). مغني اللبيب (الإصدار 2، المجلد 1). (مازن المبارك وآخرون، المترجمون) دمشق: دار الفكر.
- 14- أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. (1998). معجم الكليات (المجلد 2). بيروت: مؤسسة الرسالة.
- 15- أبو الفتح عثمان بن جني. (1952). الخصائص تر محمد علي النجار (الإصدار 2، المجلد 2). القاهرة: دار الكتب المصرية.
- 16- الإحكام في أقوال الأحكام 1983 بيروت لبنان دار الآفاق الجديدة
- 17- الآية 05، سورة يوسف.
- 18- الآية 148، سورة البقرة.
- 19- الآية 173، سورة البقرة.
- 20- الآية 226، سورة البقرة.
- 21- الآية 25، سورة يوسف.
- 22- الآية 94، سورة التوبة.
- 23- التحرير والتنوير
- 24- التحرير والتنوير
- 25- التحرير والتنوير
- 26- الجوهري. (1990). الصحاح (الإصدار 2، المجلد 6). (أحمد عبد الغفور عطار، المترجمون) القاهرة: دار العالم.
- 27- الخليل بن أحمد. كتاب العين (المجلد 7). (مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، المترجمون) دار مكتبة الهلال سلسلة المعالم والفهارس.
- 28- الزنجشيري. (1986). الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل. (مصطفى حسين أحمد، المترجمون) بيروت لبنان: دار الكتاب العربي.
- 29- الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسير التحرير والتنوير 1994 الدوحة قطر دار الثقافة
- 30- المفصل في علم العربية 2004 بيروت لبنان دار الجيل
- 31- حواس بري. (2002). المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير (المجلد 01). بيروت لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 32- رسائل لغوية
- 33- رسائل لغوية
- 34- شوقي ضيف،، القاهرة، مصر، ص 18. (1990). تيسيرات لغوية. القاهرة مصر: دار المعارف.
- 35- صلاح الدين الزعبلأوي. (1984). مشاكل القول في النقد اللغوي (المجلد 1). دمشق سوريا: الشركة المتحدة للنشر والتوزيع.
- 36- صلاح عبد الفتاح الخالدي. (2000). إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. عمان: دار عمار.
- 37- محمد الحبيب ابن خوجة. (2004). محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- 38- محمد الطاهر بن عاشور. (1984). تفسير التحرير والتنوير. الجزائر، 01: الدار التونسية للنشر، تونس/ المؤسسة الوطنية للكتاب.

- 39- محمد النذير أوسالم. (2009). الاختيارات العلمية للعلامة محمد الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير (المجلد 1). بيروت لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
- 40- محمد فاضل صالح السامرائي. (2006). صور من اتساع دلالة الألفاظ والتراكيب في تفسير الكشاف (المجلد 42). مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابه.
- 41- محمد نعمان حسن. (2014). مجلة القسم العربي (المجلد العدد 21). باكستان: جامعة بنجاب لاهور.
- 42- من أعلام الزيتونة. شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره 1996 بيروت لبنان دار ابن حزم.
6. قائمة المصادر والمراجع:
- 1/ القرآن الكريم
- 2/ ابن كمال باشا (ت 940هـ)، رسائل لغوية، تح الدكتور ناصر ن سعيد الرشيد، النادي الأدبي، الرياض، 1970، الرسالة رقم 43 في التضمين.
- 3/ ابن منظور -لسان العرب- دار الصادر، بيروت، لبنان، ط3، 1999.
- 4/ ابن هشام، مغني اللبيب، تح مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط1، 1964.
- 5/ أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، معجم الكليات، بيروت، مؤسسة الرسالة 1998.
- 6/ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952، ط2.
- 7/ بلقاسم العالي، من أعلام الزيتونة. شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، حياته وآثاره، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
- 8/ الجوهري، الصحاح، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العالم -القاهرة-، 1990، ط2.
- 9/ حواس بري، المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
- 10/ الخليل بن احمد، كتاب العين، تح مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال سلسلة المعالم والفهارس، ج7.
- 11/ الزمخشري محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، تح د. فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، لبنان، 2004، ط2.
- 12/ الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل، تح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1986.
- 13/ شوقي ضيف، تيسيرات لغوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1990.
- 14/ صلاح الدين الزعبلوي، مشاكل القول في النقد اللغوي، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1984، ط1.
- 15/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، عمان، 2000.
- 16/ علي بن أحمد ن سعيد بن حزم، الإحكام في أقوال الأحكام، تح أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1983، ج1.
- 17/ محمد الحبيب ابن خوجعة، محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2004.
- 18/ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ج1.

- 19/ محمد النذير أوسالم، الاختيارات العلمية للعلامة محمد الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2009.
- 20/ محمد فاضل صالح السامرائي، صور من اتساع دلالة الألفاظ والتراكيب في تفسير الكشاف، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها، عدد 42، 2006.
- 21/ محمد نعمان حسن، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، باكستان، العدد 21، 2014م.
- 22/ مي ثامر مفتاح العلي، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسير التحرير والتنوير، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1994.